الفصل الثاني

عوامل ساهمت في نهضة المسلمين

لقد حان الوقت لتطبيق التحليل آنف الذكر لتحديد العوامل التي عملت كآلية إطلاق في نهضة المجتمع البدوي العربي. عندما بدأ النبي محمد ﷺ الدعوة إلى الإسلام كان هذا المجتمع يعيش في بيئة اجتماعية – اقتصادية وسياسية ودولية لا تسمح على الإطلاق بازدهار حضارة تنبض بالحياة، طبقاً لفلسفة توينبي (Toynbee)، وكانت الخصائص الأساسية لهذا المجتمع تتمثل في المنازعات والحرب الضروس، وندرة الموارد والمناخ القاسي والأرض القاحلة والفقر المدقع، وكان كل هذا يقترن بحالات صارخة من عدم المساواة في الدخل والثروة. كان التعليم ضئيلاً جدّاً، ولا تكاد توجد أي علامة لتطور سريع في المستقبل القريب. وعلاوة على ذلك لم يكن لدى هذا المجتمع دراية فكرية، أو مميزات مادية مما كان يتمتع بها جيرانه الأقوياء المتمثلين في الإمبراطوريتين؛ الساسانية والبيزنطية. ومع أن هؤلاء الجيران قد أنهكتهم الحروب طويلة الأمد المدمرة، فإنهم كانوا لا يزالون أقوياء أكاديميّاً واقتصاديّاً وعسكريّاً؛ لذا، فإن السؤال الذي يطرح هو: ما الشيء الذي أدى إلى حدوث تغيير في نوعية هذا المجتمع البدوي إلى درجة أنه لم يتغلب على ظروفه المعوقة فحسب، بل أحدث أيضاً تغييراً ثوريّاً في المجتمعات التي خضعت لنفوذه؟

لقد جادل عدد من العلماء، بمن فيهم توينبي (Toynbee)، وحتي (Hitti)،

وهودجسون (Hodgson)، وبايك (Baeck)، ولويس (Lewis)[1]، بأن الإسلام قد أدى دوراً إيجابيّاً بوصفه "آلية إطلاق/ تحفيز" في نهضة المجتمعات الإسلامية، ومكنها من اجتياز تحديات صعبة وإحراز تقدم سريع في جميع مجالات الحياة. فلولا الإسلام، لما حدث، كما قال توينبي، ذلك "الانتشار الخارق للقوى الروحية الكامنة التي تجلى فيها الإسلام ورسالته، خلال ستة قرون"[2]. فكيف استطاع الإسلام تحقيق ذلك التغيير الثوري في هذا المجتمع؟

إن ما فعله الإسلام هو تنشيط كافة عوامل التطور وتوجيهها إيجابياً، فقد أولى أقصى قدر من الاهتمام للشعب، الذي يشكل القوة الأساسية الكامنة وراء نهوض مجتمع ما أو سقوطه. فقد حاول النهوض بالشعب أخلاقيّاً وماديّاً، وجعل أفراده بشراً أفضل مما كانوا عليه، وأصلح كافة المؤسسات التي كانت تؤثر فيهم. فنظرته العالمية الثورية غيرَّت نظرتهم إلى الحياة بإعطائها معنى وغاية، وجعل كل الأفراد متساوين بوصفهم مستخلفين لله الذي خلقهم وخلق الكون كله، وهذا أضفى عليهم جميعا شعوراً بالكرامة والمساواة واحترام الذات، بصرف النظر عن عرقهم

---

(1) انظر:

- Toynbee, Arnold J. *A Study of History*, abridgement by D. C. Somervell, London: Oxford University Press, 1957.
- Hitti, Philip. History of the Arabs. London: Macmillan, 1958.
- Hodgson, Marshall G. S. *The Venture of Islam: Conscience and History in a World Civilization*. Chicago: University of Chicago Press, 1974.
- Baeck, Louis. T*he Mediterranean Tradition in Economic Thought*. London: Routledge, 1994.
- Lewis, Bernard. The Middle East: 2000 Years of History from the Rise of Christianity to the Present Day. London: Weidenfeld & Nicolson, 1995.

(2) انظر:

- Toynbee, *A Study of History*, abridgement by D. C. Somervell, Volume 2, p. 30.

يؤكد بايك Baeck بأن "الإسلام هو الذي جعلهم (العرب) قوة عالمية والنور الهادي لجزء كبير من البحر المتوسط. وفي مرحلة الانتقال من العصر القديم المتأخر حتى ظهور الغرب اللاتيني في القرن العشرين، كان الإسلام في أوجه وأدى دوراً بارزاً في تشكيل ثقافة البحر المتوسط وتاريخه." انظر:

- Baeck, Louis. *The Mediterranean Tradition in Economic Thought*, p. 95.

أو جنسهم أو ثروتهم أو مكانتهم. وجعل هذا المثل الأعلى حقيقة واقعة عبر إعطاء مراكز قيادية لأولئك الذين كانوا مضطهدين ومستضعفين.[3] لقد أسبغ الإسلام قدسية على الحياة والممتلكات وشرف الأفراد، وأضفى على المعرفة طابع الاعتبار والهيبة عبر التأكيد على أهميتها التي وردت في أول الوحي القرآني.[4] وقد منح المرأة مكانة رفيعة من الاحترام بأن عدَّها "أمانة من الله"، واختاً للرجل لا عبدة له. قال رسول الله ﷺ: "فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بعهد الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله."[5]، "إنما النساء شقائق الرجال."[6]، ودعا الرجال إلى حسن معاملتهن.[7] وجعل الرعاية والتربية المناسبة للأطفال أحد الأهداف الرئيسة للشريعة، بغية ضمان أن تكون أجيال المستقبل قادرة على حمل راية التطور بشكل فعال. وقد أوجد توازناً بين جوانب الحياة المادية والروحية بأن عدهما أموراً أساسية للتطور الإنساني والرفاه البشري. لذا، فقد أضفى منزلة أعلى وأشرف على المزارع والحرفي والتاجر مقارنة بمكانتهم في التقاليد المازدية أو المسيحية التي كانت سائدة آنئذ. واستبدل الولاء للقبيلة بالولاء لله، فوسَّع أفق

---

(3) قال تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴾ [الشعراء:56].

(4) قال الله تعالى ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق:3-5].

(5) تم الاستشهاد به من جابر بن عبد الله من قبل مسلم في صحيحه، انظر:
- القشيري، مسلم بن الحجاج. **صحيح مسلم**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، (د. ط.)، (د. ت.)، ج2، ص886، حديث رقم 1218.

(6) رواه أبو داود في سننه والترمذي في جامعه وأحمد في مسنده، انظر:
- السجستاني، سليمان بن الأشعث. **سنن أبي داود**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت: دار الفكر، (د. ط.)، (د. ت.)، ج1، ص111، حديث رقم 236.
- الترمذي، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، ج1، ص189، حديث رقم 113.
- الشيباني، أحمد بن حنبل. **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط. 2، 1420هـ، 1999م، ج43، ص264، حديث رقم 26195.

(7) قال الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:19].

الفرد ليشمل الأمة بأسرها، التي يعتنق جميع أفرادها الدين ذاته، وليشمل البشرية جمعاء، التي يعد جميع أفرادها أخوة إزاء بعضهم بعضاً لكونهم خلفاء الله.

وبما أن "الميل الكامن للتشريع القرآني هو العطف على المحرومين"، كما قال كاهن (Cahen) محقاً.[8] فإن إحدى مساهمات الإسلام البارزة تتمثل برفع قيمة الضعفاء والمضطهدين، وهذا لم يحققه الإسلام عبر إقصاء الأغنياء والأقوياء، أو عبر إلغاء الملكية الخاصة وآلية السوق، بل إنه فعل ذلك عبر ضمان العدل والضمان الاجتماعي ورفاه الجميع -بمن في ذلك النساء والأطفال- عبر الإصلاح الأخلاقي والمؤسساتي، الذي جعل الفرد واعياً لالتزاماته إزاء إخوته في الإنسانية، في الوقت الذي يحاول فيه تحقيق مصلحته الذاتية في السوق. كل هذا ساعد على تعميق ولاء الناس لدينهم، وأوجد عندهم حافزاً لأن يتمثّلوا تعاليمه. غير أن هذا لم يكن كافياً بحد ذاته؛ لذا، فإن الإسلام قد مضى إلى أبعد من ذلك، فأقام حكومة فعالة لا تضمن انتشار القانون والنظام فحسب، بل تضمن أيضاً العدل ورفع المستوى الاجتماعي- الاقتصادي. فقد ضمن الحرية لكل فرد ضمن حدود نظامه الأخلاقي، ومنع الفساد والتحكم والاستبداد.[9] وأقام نظاماً قضائيّاً يطبق فيه القانون على قدم المساواة على الكبير والصغير. ويعود سبب نجاح نظاميه السياسي والقضائي بشكل أساس إلى الثورة الأخلاقية التي حققها النبي ﷺ. فهؤلاء الذين شغلوا مناصب رفيعة كانوا يتمتعون بالكفاءة، وكانوا أيضاً مستقيمين أخلاقيّاً ويتمتعون بصفاء النية ونقائها، وممتنعين على الفساد. لقد خَلُص بيسلي (Besley) محقاً في مقالة حديثة العهد إلى أن "طبيعة عمل الحكومة

(8) Cahen, Claude. "Economy, Society, Institutions." In P. M. Holt, Ann Lambton and Bernard Lewis (eds.), *The Cambridge History of Islam*. Cambridge: The Cambridge University Press. 1970, Volume 2, p. 542.

(9) يرى برنارد لويس أنّ "العرف الإسلامي... يرفض بشدة الحكومة المستبدة والطاغية. إنّ العيش في ظل العدل هو أقرب ما يكون إلى ما نسميه بالحرية." انظر:

- Lewis, Bernard. The 2007 Irving Kristol Lecture by Bernard Lewis. Posted on the internet 20 March 2007. http://www.aei.org/article/society-and-culture/the-2007-irving-kristol-lecture-by-bernard-lewis/

تعتمد على الذين يقومون بتسييرها" وأنه "ما من مجتمع يستطيع إدارة المؤسسات العامة بشكل فعال إذا كان يتجاهل نوع الذين يوظفون في المناصب العامة وما يمثلونه"[10]. بهذه الطريقة تم الوفاء بالمقتضيات المؤسساتية للتطور، التي شدد عليها نورث (North) حديثاً.[11] لذا، فإن شاتزميلر (Schatzmiller) كان محقّاً حين قال: "إن جميع العوامل التي مكّنت أوروبا من النجاح كانت متوافرة للإسلام قبل ذلك بزمن طويل"[12].

أولاً: تحويل البشر والمؤسسات

لقد أوجد تحول البشر ومؤسساتهم -من خلال "الانتشار السريع للقوى الروحية الكامنة" الذي تحقق جراء التوسع السريع للإسلام- عناصر خارجية إيجابية؛ فالقبائل التي كانت تتقاتل طوال قرون أصبحت الآن موحدة بروابط الأخوة، وهذا مكّن من إقامة حكومة حسنة التمثيل، وقوية ومستقرة و"رشيدة/ صالحة". في أول الأمر كان الناس يدعمونها طوعاً، لأنهم كانوا يدركون أنها مخلصة في أهدافها وتطلعاتها، وتعمل لمصلحة الجميع لا لفئة من الناس. وهذا ما ساعد على انتشار القانون والنظام، والأمن على الحياة والممتلكات، والأسواق حسنة التنظيم -التي تعمل بإنصاف، وبروح المنافسة- على امتداد الطرقات التجارية القديمة للشرق الأوسط. ولم يكن هذا متحققاً في السابق جراء الصراعات القبلية التي كانت سائدة منذ زمن بعيد في بلاد العرب، والحروب المدمرة بين الساسانيين والبيزنطيين، الذين كانوا يفرضون ضرائب مرهقة من أجل تمويل هذه الحروب التي كانت تعيق التطور.

---

(10) Besley, Timothy. "Political Selection." *Journal of Economic Perspectives*, 19: 3. Summer, 2005, p. 43 and 58.

(11) North and Thomas, *The Rise of the Western World*, p. 2–3; and North, Douglass C. *Institutions, Institutional Change, and Economic Performance*. Cambridge: Cambridge University Press, 1990, p. 3–10.

(12) Schatzmiller, Maya. *Labour in the Medieval Islamic World*. Leiden: Brill, 1994, p. 405.

وأصبحت المنطقة التي كانت تحت الحكم الإسلامي سوقاً مشتركة واسعة النطاق، تنمو فيها اقتصادات النقد والحركة الحرة والآمنة للسلع ورؤوس المال والبشر. وقد أدى هذا، إلى جانب المعدلات المنخفضة للضرائب إلى تطور شامل طال الزراعة والحرف والتجارة، وأدى إلى ارتفاع ذي شأن لدخول الجميع. واستفاد الجميع من التطور، وإن لم يكن ذلك بدرجة الإنصاف التي كان الإسلام يرنو إليها. وقد عزز انتشارَ العدل حوافزُ الصدق والأمانة والعمل الجاد، وتراكم رؤوس الأموال والتقدم التكنولوجي، كما أدى توافر مرافق التعليم و التكنولوجيا إلى تحسين مهارات البشر، فضلاً عن التطور التكنولوجي والفكري.

وانطلاقاً من نظرية ابن خلدون، يمكن القول بأن هذا الشحذ لقوة الشعب، الذي أحدثه الإسلام من خلال قيمه ومؤسساته المتصلة بالمساواة، وفرضها الفعال من قبل السلطة السياسية ومؤسساته، قد وفّر العدل وحكم القانون على جميع مستويات المجتمع. وهذا لم يؤمِّن "العصبية" (التضامن/ التكافل) لدى الشعب فحسب، بل أدى أيضاً دوراً حيوياً في ازدهار الحضارة الإسلامية في جميع جوانب الحياة، بما في ذلك الجانب الاقتصادي. وهذا لا يعني أن الأوضاع المثالية كانت سائدة، لكنه يعني بالفعل أن القوى الإيجابية التي تسهم في تقدم المجتمع الإسلامي كانت من القوة بحيث إنها كانت توازن تأثير القوى السلبية.

ثانياً: التقدم الذي تم إحرازه في المجالين الزراعي والريفي

كانت الزراعة في المجتمعات البدوية والريفية في تلك الأيام المستفيد الأول من توسّع الفتوحات، وقد أوجد النمو السريع للزراعة وترقية المجتمع الريفي حوافز للتطور، وهو ما كان يحدث في جميع المجتمعات الأخرى تقريباً.[13] هذا الدور الحافز الذي أدته الزراعة كان متصوراً في مرحلة مبكرة جدّاً في المجتمع الإسلامي كما بيَّن ذلك عدد من العلماء. على سبيل المثال، قال الخليفة العباسي

(13) لقد أشار البنك الدولي إلى أنه: "في جميع البلدان تقريباً التي كانت الزراعة فيها قوية، كان النمو الاقتصادي يتقدم بوتيرة سريعة"، وأنه: "في حين أن دور الزراعة في التنمية كان موضع نقاش طوال مئات السنين، فإن الأدلة القديمة والمعاصرة، على السواء، تؤيد ذلك على سبيل المثال، =

المعتصم (توفي 227هـ/ 841م): "إن فيها أموراً محمودة، فأولها عمران الأرض التي يحيا بها العالم وعليها يزكو الخراج، وتكثر الأموال، وتعيش البهائم وترخص الأسعار، ويكثر الكسب ويتسع المعاش."[14]

مع انتشار الإسلام، بُعثت الحياة فجأة في القطاعين الزراعي والريفي، وأصبحا قويين نشيطين جراء إرساء قواعد القانون والنظام، وتوفر نطاق واسع للسوق دون مخافة من الكمائن التي تتعرض لها القوافل في الطريق، أو إخضاعها لضرائب ابتزازية. وهذا دفع الجميع لبذل كل ما في وسعهم من أجل تقدمهم وتقدم مجتمعهم.

تأكيداً على العدل الذي يدعو إليه الإسلام، اعتمد النبي ﷺ والخلفاء الراشدون الأربعة أسلوباً أكثر إنسانية بترك الأرض الزراعية في فتوحاتهم بين أيدي أصحابها الأصليين والفلاحين، وذلك على نقيض تام لممارسة البيزنطيين والساسانيين في مصادرة تلك الأراضي من أصحابها ومزارعيها لتوزيعها على صفوتهم العسكرية وجنودهم[15]. كانت جميع الإقطاعات أو منح الأراضي التي يقومون بها أصغر حجماً نسبيّاً، وكانت تجري على الأرض غير المزروعة التي لم يكن لها أصحاب، بل لم يكن من المسموح للمسلمين حق شراء الأرض من سكانها

= في أوروبا واليابان والولايات المتحدة، كانت الزراعة الدينامية تقترن –وفي بعض الأحيان تسبق– عملية التصنيع والنمو". انظر:

- World Bank. *World Development Report*, 1982, p. iii and 39.

(14) استشهد به:

- المسعودي. **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، مرجع سابق، مج4، ص47. كانت الكلمة الفعلية التي استخدمها المعتصم هي "عمران" المقصود بها التطور. غير أن السياق، فضلاً عن مرحلة تطور المسلمين في ذلك الوقت توحي أنه كان ربما يشير إلى الزراعة.

(15) See: Hodgson, *The Venture of Islam*, Volume 1, p. 242; and Haque, Ziaul. *Landlord and Peasant in Early Islam*. Islamabad: Islamic Research Institute, 1977. See also Cahen, Claude. "Kharaj in the Central and Western Islamic Lands." *The Encyclopedia of Islam*, Leiden: Brill, 1990, Volume 4, p. 1031; and Lambton, Ann K. S. "Kharaj in Persia." *The Encyclopedia of Islam*, Leiden: Brill, 1990, Volume 4, p. 1045.

الأصليين[16]. هذه السياسة الإنسانية لم تمنع المسلمين من أن يصبحوا أسياداً إقطاعيين، بل ساعدت على الحفاظ على استمرارية الإدارة والحياة الاقتصادية في الأراضي المفتوحة، كما عززت العدل بين الأقاليم، فضلاً عن تحقيق أهداف المساواة التي ينادي بها الإسلام [17]. إن تطبيق مبدأ الفيء على الأرض الزراعية في الأراضي المفتوحة كان يعني مقاسمة الناتج بين الدولة والمزارعين. كان يطلب من المزارعين أن يدفعوا حصة الدولة على شكل ضريبة تدعى "الخراج"، وهذه الحصة أو الضريبة كانت تفرض في أوج الإسلام بمعدل ضعيف نسبيّاً يتراوح بين 5 و10 بالمئة من إجمالي الإنتاج، وهو ما كان معمولاً به في حالة الأراضي العشرية[18].

وبما أن الضريبة لم تكن مبلغاً فادحاً ثابتاً، بل نسبة صغيرة من الإنتاج الفعلي، فإنها لم تكن تشكّل عبئاً على المزارع في السنوات الّتي تكون فيها المحاصيل شحيحة. وفي أوضاع الكوارث الطبيعية، مثل الفيضانات، والجفاف وهلاك الزرع

---

(16) انظر:

- ابن إبراهيم، أبو يوسف يعقوب. كتاب الخراج، القاهرة: المطبعة السلفية، ط2، 1352هـ، ص24 وما يليها.
- القرشي، يحيى بن آدم. كتاب الخراج، تحقيق: أحمد محمد شاكر، القاهرة: المطبعة السلفية، ط2، 1384هـ، ص41–42.
- Haque, Landlord and Peasant in Early Islam, p. 171.
- Cahen, "Economy, Society, Institutions.", p. 571.

(17) القرشي. **كتاب الخراج**، مرجع سابق، ص52، و157 و158.

(18) ابن سلام، أبو عبيد القاسم. **كتاب الأموال**، تحقيق: محمد خليل الهراس، القاهرة: مكتبة الكلية الأزهرية، 1968م، ص59–66. انظر بشكل خاص الفقرات 110، 114 و118. انظر أيضاً:

- ابن إبراهيم. كتاب الخراج، مرجع سابق، ص24 وما يليها.
- القرشي. كتاب الخراج، مرجع سابق، ص41–42.
- Hitti, *History of the Arabs*, p. 349 and p. 384–386.
- Cahen, "Kharaj in the Central and Western Islamic Lands.", p. 1031.
- Lambton, Ann K. S. "Kharaj in Persia.", p. 1038.
- Haque, *Landlord and Peasant in Early Islam*, p. 171.

من آفات طبيعية لا يمكن تفاديها، كان المزارعون يُعفَون من الخراج، امتثالاً لتعاليم النبي وممارسة الخلفاء الراشدين.[19] وعلاوة على ذلك، استمرت هذه الممارسة فترة طويلة من الزمن، فبالرغم من ارتفاع معدلات الضريبة بمجيء السلاجقة (447–590هـ/ 1055–1194م) إلى السلطة، فإن "الضرائب التي فرضتها الإدارة السلجوقية على السكان النصارى" من "المحتمل أنها كانت أخف من تلك التي كان يفرضها النظام المالي البيزنطي المتقهقر"[20].

والنسبة القليلة للضريبة يمكن أن تصبح عبئاً إذا لم تجلب العوائد منفعة مباشرة أو غير مباشرة للمكلَّف الضريبي؛ لذا، فقد فرضت الشريعة الإسلامية التزاماً أخلاقيّاً على الدولة بأن تبني السدود وقنوات الري، وتحافظ عليها بغية تحسين إنتاجية الأرض.[21] إن عوائد الخراج كانت تستخدم لتعزيز رفاه الشعب من خلال الإنفاق العام، بما في ذلك بناء البنية الأساسية المادية والاجتماعية وصيانتها. ويقدم لنا تاريخ الأمويين والعباسيين والسلالات الحاكمة الأخرى، وصولاً إلى العثمانيين الأوائل أمثلة واضحة عن إقامة مشاريع ري واسعة النطاق على أنهار دجلة والفرات والخابور والعاصي وبردى، وإجراء الصيانة اللازمة لها.[22] وكانت قنوات الماء الجوفية الطويلة، التي كانت تُشق في بعض الأحيان في الصخر، تنقل الماء من مصادره في الجبال إلى مسافات بعيدة فوق الهضاب أو

---

(19) ابن إبراهيم. **كتاب الخراج**، مرجع سابق. انظر أيضًا:

- Aghnides, Nicholas P. *Mohammedan Theories of Finance with an Introduction to Mohammedan Law and a Bibliography*. New York: Columbia University, 1916, p. 389.

(20) Bosworth, C. E. "aljuqids." In *The Encyclopedia of Islam*. Leiden: Brill, 1995, Volume 8, p. 959.

(21) يتضح هذا التأكيد في:

- ابن يوسف. **كتاب الخراج**، مرجع سابق. وكذلك في كتابات كبار الفقهاء.

- Shihabi, Mustafa al–, et al. "Filaha." *The Encyclopedia of Islam*. Leiden: Brill, 1965, Volume 2, p. 901.

(22) Shihabi, Mustafa al–, et al. "Filaha." *The Encyclopedia of Islam*. Leiden: Brill, 1965, Volume 2, p. 901.

في الصحراء[23]. لقد أورد المقريزي (توفي 845هـ/ 1442م) أن مئة وعشرين ألف عامل كانوا يعملون يوميّاً في وادي النيل لصيانة السدود والجسور.[24]

إن فرض الضرائب العادل واستخدام العوائد من أجل العِمارة هما سبب تفضيل المزارعين للمسلمين على الحكام البيزنطيين والساسانيين. فالأخيرون كانوا يفرضون ضرائب باهظة وبمبالغ ثابتة ولم يكونوا يستخدمون العوائد لتعزيز رفاه الشعب. وعلاوة على ذلك، فإن المبالغ الثابتة كانت ترغم الفلاحين على الاقتراض في السَّنوات التي تقلّ فيها إنتاجية الأرض من المحاصيل، وكان ذلك يتم وفق شروط مجحفة.[25] ظل النظام الضريبي صعوداً وهبوطاً أخف وطأة حتى في الفترة العثمانية الأولى عندما كان السلاطين يحاولون حماية رعاياهم من جميع أنواع الإساءات والمظالم.[26] ولعل هذا هو السبب الذي جعل مارتن لوثر يحذر الحكام الأوروبيين عام 1541م، من أن الناس الفقراء الذين يتعرضون لاضطهاد الأمراء الجشعين وملّاك الأراضي، والسكان ميسوري الحال، قد يفضلون بالفعل العيش في ظل حكم الأتراك بدلاً من المسيحيين من أمثال هؤلاء[27].

لعل هذه السياسة الإنسانية العطوفة كانت أهم سبب للثورة الزراعية التي

---

(23) Hodgson, *The Venture of Islam*, Volume 1, p. 301.

(24) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي. **الخطط المقريزية**، بيروت: دار صادر، د.ت مج1، ص74.

(25) See Watson, Andrew M. *Agricultural Innovation in the Early Islamic World: The Diffusion of Crops and Farming Techniques:* 700–1100. Cambridge: Cambridge University Press, 1983; and Cahen, "Kharaj in the Central and Western Islamic Lands.", p. 1031.

(26) See: Inalcik, Halil and Dovald Quataert (eds.). *An Economic and Social History of the Ottoman Empire, 1300–1914*, p. 16–17.

(27) Cited by Lewis from Luther›s "Admonition to prayer against the Turks". See:
- Lewis, Bernard. *The Middle East: 2000 Years of History from the Rise of Christianity to the Present Day*. London: Weidenfeld & Nicolson, 1995.

حدثت في العالم الإسلامي.[28] هذه السياسة دفعت الفلاحين ومكنتهم من استخدام أرضهم وأدواتهم على نحو أكثر فعالية. وقد تم إدخال تقنيات جديدة في الزراعة، وتمت زراعة محاصيل جديدة عديدة، وتم تطوير استخدام الماء إلى درجة عالية. قال واطسون (Watson): "لقد كانت الزيادات في إنتاج الغذاء التي نجمت عن الثورة الزراعية كبيرة، لدرجة أن الريف لم يكن يغذي العدد الكبير من السكان الريفيين فقط بل أيضاً السكان الحضريين."[29] قد يكون هذا واحداً من أهم العوامل المهمة المسؤولة عن "الاستقرار الخارق للعادة في سعر القمح المصري من القرن السادس حتى القرن التاسع"[30].

ثالثاً: الازدهار الحضري

انتقل الازدهار الريفي إلى كافة قطاعات الاقتصاد والمجتمع الأخرى، وأدى إلى توسع كبير للتمدن وتطور الحرف والصناعات الحضرية: لقد حقق المجتمع الإسلامي نقلة من الزراعة إلى الصناعة، وأوجد بذلك أبعاداً مهنية لم تكن معروفة من قبل."[31] إن انتقال الازدهار من قطاع لآخر مع الزمن يشكل إحدى كتل البناء المهمة للسببية الدورية المتكررة والديناميات الاجتماعية – الاقتصادية والسياسية لابن خلدون. وأدت هذه السوق المشتركة الواسعة، التي شهدت حرية حركة البضائع ورأس المال والعمالة وأصحاب المشاريع، إلى توسع التجارة الداخلية والخارجية. وتم إرساء قواعد العلاقات التجارية داخل الإمبراطورية ومع العالم الخارجي[32]. وقد اتسعت الأنشطة التجارية لتصل إلى الصين في عهد

---

(28) للاطلاع على الثورة الزراعية، انظر:

- Cahen, "Economy, Society, Institutions.", p. 512; and Watson, *Agricultural Innovation in the Early Islamic World*.

(29) Watson, *Agricultural Innovation in the Early Islamic World*, p. 45.

(30) Cahen, "Economy, Society, Institutions.", p. 512.

(31) Schatzmiller, *Labour in the Medieval Islamic World*, p. 399–400.

(32) Cahen, "Economy, Society, Institutions.", p. 516.

هارون الرشيد (170–193هـ/ 786–809م). وبهذه الطريقة تم استخدام القدرة الكامنة الكبيرة للتطور إلى الحد الأمثل، وأصبح العراق مركز التجارة والمال العالميين.

رابعاً: التقدم الفكري

لقد عزز الازدهار الريفي والحضري وجود "ثقافة حضرية مزدهرة ومتنوعة"[33]. كما أدى توافر المساعدة المالية للطلاب والعلماء إلى جانب وجود التسهيلات المناسبة، وتوافر بيئة للنشاط الفكري الجاد، فضلاً عن التسامح إلى وضع لم "يكن له مثيل في ذلك الزمن في بقية أوروبا"، جعل العالم الإسلامي ملتقى العلماء من كافة الميادين والاتجاهات (من مسلمين ونصارى ويهود وزرادشتيين وصابئة).[34] وكان النقاش الحر يدور حول جميع المسائل الفكرية؛ مما أدى إلى حصول تقدم فكري شامل. وقد شهد العالم "نهضة فكرية بالغة الأهمية"[35] ولا سيّما في عهد هارون الرشيد (170–193هـ/ 786–809م)، الذي استمر حوالي ربع قرن، عندما نهضت بغداد من كونها معدمة لتصبح مركزاً عالميّاً للثروة والعلم. "كان هذا العصر النموذجي للإسلام، نضجت فيه حضارة جديدة وغنية وأصيلة، نشأت من تلاقي العديد من الأعراق والتقاليد."[36] وقد تطورت الدراسات القرآنية في هذه الفترة والحديث والفقه، ووفرت البنية الأساسية لنظام

(33) Lewis, Bernard. "Abbasids." In *The Encyclopedia of Islam*. Leiden: Brill, 1960, Volume 1, p. 15–26.

(34) Saunders, John J. (ed.). *The Muslim World on the Eve of Europe's Expansion*, p. 24; See also Gibb, H. A. R. *Studies on the Civilization of Islam*. London: Routledge and Kegan Paul, 1962, p. 20; Lewis, *The Middle East: 2000 Years of History* …, p. 72.
وذكر كندي (Kennedy) أن التسامح مع الأعراق الأخرى أحضر الكثير من اليونانيين واليهود وغير اليهود (المسيحيين) تحت خدمة السلطان. انظر:
- Kennedy, *The Rise and Fall of the Great Powers*, p.11.

(35) Hitti, *History of the Arabs*, p. 306.

(36) Lewis, "Abbasids.", p. 20.

قضائي لبّى الاحتياجات القانونية والمؤسساتية لمجتمع سريع النمو. وعلاوة على ذلك، فقد أضيفت مساهمات مبتكرة وخارقة إلى الرياضيات والعلوم والطب والفلسفة، وعلم الكلام والأدب والفن، وهذا ما جعل العالم الإسلامي يتبوأ مركز الصدارة في هذه الميادين طوال أربعة قرون تقريباً؛ من منتصف القرن الثامن إلى منتصف القرن الثاني عشر[37]. وحتى بعد أن تراجع العالم الإسلامي عن مركزه الأول، استمرت المساهمات ذات الشأن مدة قرنين آخرين على الأقل.

لولا الإلهام و"التحفيز" اللذان وفرهما الإسلام لما نهض المجتمع البدوي العربي ابتداء، ولو أنه فعل لما تمكن من البقاء بعد وفاة النبي ﷺ عام 11هـ/ 632م، أو نهاية الخلافة الراشدة عام 41هـ/ 661م. وهو لم يفعل ذلك فحسب، بل تمكن من الصمود بعد الإطاحة بالخلافتين الأموية والعباسية، وصد الهجمات المتكررة للصليبيين (1095–1291م) وإدخال الغزاة –من آسيا الوسطى والصين– أنفسهم في الإسلام[38]. وهكذا فقد أشاد جورج سارتون (George Sarton) بالإسلام في كتابه "المدخل إلى تاريخ العلوم" حين قال: "لقد سيطر الدين على حياة المسلمين إلى درجة لم يسبق لها مثيل، وما من شعب تقيد بشكل جاد بدينه مثل المسلمين، وهذا من دون شك كان السبب الرئيس لتماسكهم وقوتهم ضد أعدائهم الذين كانوا منقسمين والذين كان إيمانهم ضعيفاً وفاتراً"[39].

---

(37) Sarton, George. *Introduction to the History of Science*. Washington, DC: Carnegie Institute, 1927. Particularly volume 1 and book 1 of volume 2.

(38) الموحدون والسلاجقة والمغول.

(39) Sarton, *Introduction to the History of Science*, Volume 1, p. 503.

يرى سوروكين (Sorokin) أن "الحضارة العربية (التي لا يشدد توينبي على صفتها السائدة) أظهرت روحاً علمية وتكنولوجية هائلة من القرن الثامن إلى القرن الثالث عشر، أكثر بكثير من الحضارة الغربية خلال هذه القرون". انظر:

- Sorokin, *Social Philosophies of an Age of Crisis*, p. 238.